ابن بطوطه و بلاد السودان

(تابع ما قبلهُ)

وحضرت مجلس السلطان في بعض الايام فاتى احد فقهائهم وكان قدم من بلاد بعيدة وقام بين يدي السلطان وتكلم كلاماً كثيراً فقام القاضي فصدقهُ ثم صدقهما السلطان وكان الى جانبي رجل من البيضان فقال لي اتعرف ما قالوهُ فقلت لا فقال ان الفقيه اخبر ان الجراد وقع ببلادهم فخرج احد صلحائهم الى موضع الجراد فنهاهُ امرها فقال هذا جراد كثير فاجابت جرادة منها وقالت ان البلاد التي يكثر فيها الظلم يمنعنا الله لفساد زرعها . فصدقهُ القاضي والسلطان وقال السلطان عند ذلك للامراء اني بريء من الظلم ومن ظلم منكم عاقبتهُ ومن علم بظلم ولم يعلمني بهِ فذنوب ذلك الظالم في عنقهِ والله حسيبهُ وسائلهُ . ولما قال هذا الكلام وضع الفرارية عمائمهم على رؤوسهم وتبرأوا من الظلم

وحضرت الجمعة يوماً فقام احد التجار من طلبة مسوفة ويسمى بابي حفص فقال يا اهل المسجد اشهدكم ان منسى سليمان في دعوتي الى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم . فلما قال ذلك خرج اليهِ رجال من مقصورة السلطان فقالوا لهُ من ظلمك فمن اخذ لك شيئاً . فقال ما معناهُ ان مشرف ابوالاتن اخذ مني ما قيمتهُ ستمائة مثقال واراد ان يعطيني في مقابلتهِ مائة مثقال خاصةً . فبعث السلطان عنهُ فلم يحضر بعد ايام وصرفها الى القاضي فثبت للتاجر حقهُ فاخذهُ وبعد ذلك عزل المشرف عن عملهِ

واتفق في ايام اقامتي بمالي ان السلطان غضب على زوجتهِ الكبرى بنت عمهِ المدعوة قاسا ومعنى قاسا عندهم الملكة وهي شريكتهُ في الملك على عادة السودان و يذكر اسمها مع اسمهِ على المنبر وسجنها عند بعض الفرارية وولى في مكانها زوجتهُ الاخرى بنجو ولم تكن من بنات الملوك . فاكثر الناس الكلام في ذلك وانكروا فعلهُ . ودخل بنات عمهِ على بنجو يهنئنها بالملكة ولم يتزين (١) ثم ان السلطان سرّح قاسا من ثقافها فدخل عليها بنات عمهِ يهنئنها بالسراح وتزين على العادة فشكت بنجو الى السلطان بذلك فغضب على بنات عمهِ فحفن منهُ واستجرن بالجامع فعفا عنهن واستدعاهن . وعادتهن اذا دخلن على السلطان ان يتجردن من

(١) التزيين زي النساء على الراس قال ابن بطوطه في مكان آخر ان اهالي السودان كانوا يدهنون استرامًا شعورهم وعضائهم

ثيابهن و يدخلن عرايا ففعلن ذلك ورضي عنهن وصرن يأتين باب السلطان غدوًا وعشيًا مدة سبعة ايام وكذلك يفعل كل من عفا عنهُ السلطان . وصارت قاسا تركب كل يوم في جواريها وعبيدها وعلى رؤوسهم التراب وتقف عند المشور متنقبة لا يرى وجهها . واكثر الامراء الكلام في شأنها فجمعهم السلطان في المشور وقال لهم دوغا على لسانهِ انكم قد اكثرتم الكلام في امر قاسا وانها اذنبت ذنبًا كبيرًا . ثم أتي بجارية من جواريها مقيدة مغلولة فقيل لها تكلمي بما عندكِ فاخبرت ان قاسا بعثتها الى جاطل ابن عم السلطان الهارب عنهُ الى كنبُرني واستدعتهُ ليخلع السلطان عن ملكهِ وقالت لهُ انا وجميع العساكر طوع امرك . فلما سمع الامراء ذلك قالوا ان هذا ذنب كبير وهي تستحق القتل عليهِ . فخافت قاسا من ذلك واستجارت بدار الخطيب . وعادتهم ان يستجيروا بالمسجد وان لم يتمكنوا فبدار الخطيب

ولم يذكر ابن بطوطة ما جرى لهذه الملكة بعد ذلك لكنهُ قال ان السودان كانوا يكرهون منسى سليمان لبخلهِ وذكر قصة عن كرم سلف سلفهِ ثم استطرد الى ذكر ما استحسنهُ من افعال السودان مما استقبحهُ منها فقال

من افعالهم الحسنة قلة الظلم فهم ابعد الناس عنهُ وسلطانهم لا يسامح احدًا في شيء منهُ ومنها شمول الامن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب . ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة انما يتركونهُ بيد ثقة من البيضان حتى يأخذهُ مستحقهُ . ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها في الجماعات وضربهم اولادهم عليها واذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الانسان الى المسجد لم يجد اين يصلي لكثرة الزحام . ومن عادتهم ان يبعث كل انسان غلامهُ بسجادة فيبسطها لهُ بموضع يستحقهُ بها حتى يذهب الى المسجد . وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ولا ثمر لهُ . ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لاحدهم الا قميص خلق غسلهُ ونظفهُ وشهد بهِ الجمعة . ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم يحملون لاولادهم القيود اذا ظهر في حقهم التقصير في حفظهِ فلا تفك عنهم حتى يحفظوهُ

ومن مساوئ افعالهم كون الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات . ولقد كنت ارى في رمضان كثيرًا منهن على تلك الصورة فان عادة الفرارية ان يفطروا بدار السلطان و يأتي كل واحد منهم بطعامهِ تحملهُ العشرون فما فوقهن من جواريهِ وهن عرايا . ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات وتعري بناتهِ ولقد رأيت في ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره

عرايا ومعهن بنتان لهُ تاعدان ليس عليهما ستر . ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدباً . ومنها ان كثيراً منهم يأكلون الجيف والكلاب والخمير

وكان دخولي الى ماني في الرابع عشر لجمادي الاولى سنة ثلاث وخمسين (وسبعمائة) وخروجي عنها في الثاني والعشرين لمحرم سنة اربع وخمسين (وسبعمائة) ورافقني تاجر يعرف بابي بكر بن يعقوب وقصدنا طريق سيمة وكان لي جمل اركبهُ لان الخيل غالية الاثمان يساوي احدها مائة مثقال فوصلنا الى خليج كبير يخرج من النيل (النيجر) لا يجاز الاَّ في المراكب وذلك الموضع كثير البعوض قلا يمرُّ احد به الاَّ بالليل ووصلنا الخليج ثلث الليل والليل مقمر

ولما وصلنا الخليج رأيت على ضفتهِ ست عشرة دابَّة ضخمة اطلقة فهجت منها وظننتها فيلة لكثرتها هناك ثم اني رأيتها دخلت في النهر فقلت لابي بكر بن يعقوب ما هذه الدواب فقال هي خيل البحر خرجت ترعى في البر . وهي اغلظ من الخيل ولها اعراف واذناب ورؤوسها كرؤوس الخيل وارجلها كارجل الفيلة . ورأيت هذه الخيل مرةً اخرى لما ركبنا النيل (النيجر) من تنبكتو الى كوكو (غوى) وهي تعوم في الماء وترفع رؤوسها وتنفخ وخاف منها اهل المركب فقربوا من البر لئلاَّ تغرقهم . ولهم حيلة في صيدها حسنة وذلك ان لهم رماحاً مثقوبة قد جُعل في ثقبها شرائط وثيقة فيضربون الفرس منها فان صادفت الضربة رجلهُ او عنقهُ نفذتهُ وجذبوهُ بالحبل حتى يصل الى الساحل فيقتلونهُ ويأكلون لحمهُ ومن عظامها بالساحل كثير . وكان نزولنا عند هذا الخليج بقرية كبيرة عليها حاكم من السودان حاج فاضل يسمى فَرْبا مَغا وهو ممَّن حجَّ مع السلطان منسى موسى لما حجَّ

اخبرني فربا مغا ان منسى موسى لما وصل الى هذا الخليج كان معهُ قاضٍ من البيضان يكنى بابي العباس ويعرف بالدكالي فاحتاج اليهِ باربعة آلاف مثقال لنفقتهِ فلما وصلوا الى سيمة شكا الى السلطان بان الاربعة آلاف مثقال سرقت من دارهِ فاستحضر السلطان امير سيمة وتوعدهُ بالقتل ان لم يحضر من سرقها وطلب الامير السارق فلم يجد احداً ولا سارق يكون بتلك البلاد فدخل دار القاضي واشتدَّ على خدامهِ وهددهم فقالت لهُ احدى جواريهِ ما ضاع لهُ شيء وانما دفنها بيدو في ذلك الموضع واشارت لهُ الى الموضع فاخرجها الامير واتى بها السلطان وعرَّفهُ الخبر فغضب على القاضي ونفاهُ الى بلاد الكفار الذين يأكلون بني آدم فاقام عندهم اربع سنين ثمَّ ردَّهُ الى بلدهِ وانما لم يأكلهُ الكفار لبياضهِ لانهم يقولون ان اكل الابيض مضرٌّ لانهُ لم ينضج والاسود هو النضيج بزعمهم

حكاية — قدمت على السلطان منسى سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون

بني آدم معهم امير لهم وعادتهم ان يجعلوا في آذانهم اقراطاً كباراً وتكون فتحة القرط منها نصف شبر و يتحفون في ملاحف الحرير وفي بلادهم يكون معدن الذهب فاكرمهم السلطان واعطاهم في الضيافة خادماً فذبحوها واكلوها ولطخوا وجوههم وايديهم بدمها واتوا السلطان شاكرين

ثم رحلنا من هذه القرية التي عند الخليج فوصلنا الى بلدة قُري منسا ومات لي بها الجمل الذي كنت اركبهُ فاخبرني راعيهِ بذلك فخرجتُ لانظر اليهِ فوجدت السودان قد اكلوهُ كعادتهم في اكل الجيف . فبعثت غلامين كنت استأجرتهما على خدمتي ليشتريا لي جملاً يزاغري وهي على مسيرة يومين واقام معي بعض اصحاب ابي بكر بن يعقوب وتوجه هو ليتنظرنا بميمة فاقمت ستة ايام اضافني فيها بعض الحجاج بهذه البلدة حتى وصل الغلامان بالجمل . ثم رحلت الى بلدة ميمة فنزلنا على آبار بخارجها ثم سافرنا منها الى مدينة تُنبكتُو وبين تنبكتو وبين النيل اربعة اميال واكثر سكانها مسوفة اهل اللثام وحاكمها يسمَّى فَرْبا موسى . حضرت عندهُ يوماً وقد قدَّم احد مسوفة اميراً على جماعة فجعل عليهِ ثوباً وعمامة وسروالاً كلها مصبوغة واجلسهُ على درقة ورفعهُ كبراء قبيلتهِ على رؤوسهم . وبهذه البلدة قبر الشاعر المفلق ابي اسحق الساحلي الغرناطي المعروف ببلده بالطويجي وبها قبر سراج الدين بن الكويك احد كبار التجار من اهل الاسكندرية

حكاية — كان السلطان منسى موسى لما حج نزل بروض لسراج الدين هذا بدركة الجيش خارج مصر وبها ينزل السلطان . واحتاج الى مال فتسلفهُ من سراج الدين وتسلَّف منهُ امراؤهُ ايضاً وبعث معهم سراج الدين وكيلهُ يقتضي المال فاقام يمالي فتوجه سراج الدين بنفسهِ لاقتضاء مالهِ ومعهُ ابن له فلما وصل تنبكتو اضافهُ ابو اسحق الساحلي فكان من القدر موتهُ تلك الليلة . فتكلم الناس في ذلك واتهموا انهُ سُمَّ فقال لهم ولدهُ اني اكلتُ معهُ ذلك الطعام بعينهِ فلو كان فيهِ سم لقتلنا جميعاً لكنهُ انقضى اجلهُ ووصل الولد الى مالي واقتضى مالهُ وانصرف الى ديار مصر

ومن تنبكتو ركبت النيل (النيجر) في مركب صغير مخوت من خشبة واحدة وكنا ننزل كل ليلة بالقرى فنشتري ما نحتاج اليهِ من الطعام والسمن بالملح و بالعطريات و بحلي الزجاج . ثم وصلت الى بلد أُنسيت اسمهُ لهُ امير فاضل حاج يسمَّى فربا سليمان مشهور بالشجاعة والشدَّة لا يتعاطى احد النزع في قوسهِ ولم ارَ في السودان اطول منهُ ولا اضخم جسماً . واحتجت بهذه البلدة الى شيء من الذرة فجئتُ اليهِ وذلك يوم مولد رسول الله

صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه وسألني عن مقدمي وكان معهُ فقيه يكتب لهُ فاخذت لوحاً كان بين يديه وكتبت فيه يا فقيه قل لهذا الامير انّا نحتاج الى شيء من الذرة للزاد والسلام . وناولت الفقيه اللوح يقرأ ما فيه سرًّا ويكلم الامير في ذلك بلسانه فقرأهُ جهراً وفهمهُ الامير فاخذ بيدي وادخلني الى مشورته وبه سلاح كثير من الدرق والقسي والرماح ووجدت عندهُ كتاب المدهش لابن الجوزي فجعلت اقرأ فيه ثم أتي بشروب يسمّى الدّقنو وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوط بيسير عسل او لبن وهم يشربونهُ عوض الماء لانهم اذا شربوا الماء خالصاً اضرَّ بهم وان لم يجدوا الذرة خلطوهُ بالعسل واللبن . ثم اتي بطبق اخضر فاكلنا منهُ ودخل غلام خدامي فدعاهُ وقال لي هذا ضيافتك فاحفظهُ ليلاً يغر فاخذتهُ واردت الانصراف فقال اقم حتى يأتي الطعام وجاءت الينا جارية لهُ دمشقية عربية فكلمني بالعربي فبينا نحن في ذلك سمعنا صراخاً بداره فوجّه الجارية لتعرف خبر ذلك فعادت اليه فاعلمتهُ ان بنتاً لهُ قد توفيت فقال اني لا احب البكاء فتعالَ نمشي الى البحر يعني النيل ولهُ على ساحله دير فاتي بالفرس فقال لي اركب فقلت لا اركبهُ وانت ماشٍ فمشينا جميعاً ووصلنا الى داره على النيل واتي بالطعام فاكلنا وودعتهُ وانصرفت ولم ارَ في السودان اكرم منهُ ولا افضل . والغلام الذي اعطانيه باقٍ عندي الى الآن

ثم سرت الى مدينة كَوْكَوْ وهي مدينة كبيرة على النيل (النجر) من احسن مدن السودان واكبرها واخصبها فيها الارز الكثير واللبن والدجاج والسمك وبها الفقوس الصغاني الذي لا نظير لهُ وتعامُل اهلها في البيع والشراء بالوَدَع وكذلك اهل مالي . واقمت بها نحو شهر واضافني بها محمد بن عُمر من اهل مكناسة وكان ظريفاً مزّاحاً فاضلاً وتوفي بعد خروجي عنها . واضافني بها الحاج محمد الوجدي التازي وهو ممّن دخل اليمن والفقيه محمد الغيلاني امام مسجد البيضان . ثم سافرت منها برسم تكدّا في البر مع قافلة كبيرة لغداسيين دليلهم ومقدمهم الحاج وُجين . ثم وصلنا الى بلاد بَرْدامة وهي قبيلة من البربر ولا تسير القوافل الاّ في خفارتهم والمرأة عندهم في ذلك اعظم شأناً من الرجل وهم رحّالة لا يقيمون وبيوتهم غريبة الشكل يقيمون اعواداً من الخشب ويضعون عليها الحصر وفوق ذلك اعواد مشبكة وفوقها الجلود او ثياب القطن ونساؤهم اتمّ النساء جمالاً وابدعهنّ صوراً مع البياض الناصع والسِّمَن . ولم ارَ في البلاد من بلغ سلغهنّ في السمن وطعامهنّ حليب البقر وجريش الذرة يشربهُ مخلوطاً بالماء غير مطبوخ عند المساء والصباح ومن اراد التزوج منهنّ سكن بهنّ في اقرب البلاد اليهنّ ولا يتجاوز بهنّ كَوْكَوْ ولا ايوالاتن

ستأتي البقية

محمد قدري باشا

مقتطف مارس ١٩١٦

امام الصفحة ٢٥٣